الفصل العاشر

التربية .. والثقافة

الفصل العاشر

التربية.. والثقافة

مدخل:

أصبح من المسلم به لدى علماء التربية، وكما سبق القول ، أن التربية عنصر مهم من عناصر الحياة ، بل إنها أهم عنصر في تلك الحياة ، بل إن بعض علماء التربية ذوي الشهرة الواسعة، أمثال « جون ديوي » الفيلسوف التربوي الكبير، وصاحب الفكر التربوي الواسع والعريض، والذي تشكلت أجيال من أبناء الأمة الأمريكية على أساس أفكاره التربوية النيِّرة، بل والذي استدعته اليابان في فترة نهضتها كي تستفيد من نظرياته وخبراته، هذا المفكر يقول : «إن التربية هي الحياة ذاتها » ، لأنه لا يمكن الفصل بين وجهي العملة الواحدة، فمعنى وجود الحياة يحمل بالضرورة في ثناياه وجود التربية ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن توجد تربية بدون مجتمع، أو بدون حياة، وقد سبقت الإشارة لأفكار «ديوي» في ثنايا الفصل الذي كتب عن التربية في هذا الكتاب، ولقد سار عدد من فلاسفة التربية على منهاج «ديوي» فكتب «جولد ستين Goldstein » مبينًا أن التربية تدخل في صميم نسيج المجتمع Its Fiber، فهي ليست لونًا خارجيًا يطلي به المجتمع، ولكنها جزء منه لا يمكن عزلها عنه، كما لا يمكن فصله وإبعاده عنها.[1]

ولقد صدق من كتب إن « التربية مخ الحضارة ، قل أو قلبها، وهي مخ حياتنا، وأضف أعماق قلبها.. إن التربية إذا صلحت صلحت أمور حياتنا كلها.. ومن الحق أن نقولها، ومن الواجب ألا ننطلق لحل مشاكلنا إلا ونحن تحت رايتها، فبها تنصلح كل أمورنا ، ودون أي اتهام بالمبالغة، في البيت، وفي المدرسة، في الشارع، وفي المؤسسة، في الملعب .. كما في المصنع، في أمورنا

(١) Willim Goldstein: Controversial Issues in Our Schools, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Ind., 1980, p.7.

الداخلية، وعلى الأطراف عند الحدود، في السلم، كما في الحرب.

التربية تصلح كل ما نشكو منه، أو نعتذر عنه، أو نخجل من إبدائه، أو نود بناءه فلا نقدر عليه. تقدم لنا حكمة « الماضي » ، وتعالج مدى ثقتنا في « الحاضر » ، كما أنها تهدئ مخاوفنا التي تؤرقنا عن « المستقبل » . التربية .. باختصار .. معناها غرس الثقة، واستمرار القدرة، والتأكد من اليقين بالنجاح والانتصار ».[٢]

ورغم ما في الأسلوب السابق من نبرية شعرية إلا أن الألفاظ عبرت بالفعل عن فهم عميق للتربية، واستنتاج سليم لوظيفتها في المجتمع الذي تعمل فيه وله، ولو أن مؤسساتنا التربوية وعت هذه الأبعاد ـ فعلاً ـ في تربيتها، ونفذتها في عملياتها لاختلفت صور الحياة على أرضنا، كما حدث من قبل حين كنا متقدمين، وكانت الحضارة الإسلامية حضارة رائعة، وحين كان الإنسان المسلم خريج « مدرسة الإسلام العظمى » يمثل القدوة والنموذج للبشر.. في إيمانه ويقينه ، في علمه وعمله، في أخلاقياته وتعاملاته مع أفراد مجتمعه من المسلمين، بل ومع غير المسلمين كذلك.

إذا كانت هذه هي التربية في أهميتها وخطورتها.. بالنسبة للفرد وكذا بالنسبة للمجتمع، بالنسب للفرد في طفولته ورعايته وتنشئته، بل وحتى بالنسبة لهذا الطفل قبل مولده، بل وحتى قبل أن تحمل أمة فيه، بل ـ وأكثر من ذلك ـ قبل أن يتزوجها أبوه، حيث علمنا المربي الأعظم والأسمى ﷺ بأن نتخير لنطفنا لأن العرق دساس، فكان بهذا أول من نبه بني الإنسان وعلمهم أن الصفات البشرية تنتقل وتتوارث من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى آخر، ولا أظنه ﷺ كان يقصد الصفات الجنسية الظاهرة والواضحة التي يتحدث عنها علماء الأجناس والسلالا البشرية في كتب الجغرافيا البشرية لأن الله ـ جل وعلا ـ لا ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، كما جاء في الأثر ، وإنما كان ﷺ يعني الاهتمام

(٢) محمد الأحمد الرشيد : احفظوا آية واحدة وطبقوها.. احفظوا حديثا واحداً وطبقوه، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، العدد ٨، السنة الخامسة، الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، من كلمة العدد.

بالبيئة التربوية التي نشأت فيها الفتاة.. أم المستقبل، وبالخلية الأولى للمجتمع.. أي الأسرة ، الأسرة التي يختار الإنسان منها شريكة حياته، ومن ثم الأسرة التي هي في علم الغيب، والتي ستتكون فيما بعد بإذن الله.

وحول هذا المعنى يقول « سويد » : « إن خير ما تنكح عليه المرأة دينها وصلاحها وتقواها وإنابتها إلى ربها تعالى ، مثل هذه تقر بها العين، وتؤتمن على نفسها ومال زوجها ، وتربية أبنائهما ، كي تغذيهم بالإيمان مع الطعام، وكي تصب فيهم أحسن المبادئ مع اللبن، وكي تسمعهم من ذكر الله تعالى، ومن الصلاة على نبيه ﷺ ما يشربهم التقوى، وما يركز فيهم حب الإسلام إلى أن يموتوا ، والمرء يشيب على ما شب عليه، وإن صفات الوالدين لتنحدر إلى الأولاد.»[٣]

ويمضي الكاتب السابق موضحا رأيه قائلا : (وكثيراً ما تظهر ملكة التقوى في الولد تبعًا لأبويه، أو لأحدهما ، أو للعم أو للخال . وقد ورد الإرشاد النبوي منبهًا إلى هذا فيما رواه « ابن عدي » و « ابن عساكر » عن « عائشة » رضي الله عنها عن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن »).[٤]

ويخرج الطفل إلى الحياة - في المجتمع المسلم الحق - فتتلقفه التربية الإسلامية الرائعة المأخوذة عن خير معلم أرسل لهداية البشرية ﷺ فتتعامل مع كل جوارحه منذ اللحظة الأولى من ميلاده ، فيؤذن في أذنه اليمنى ، ويسمع إقامة الصلاة في اليسرى، وفي ذلك رمز حسي ملموس للمهمة التي جاء من أجلها إلى الوجود ، ألا وهي عبادة الله .. سبحانه وتعالى ، وتلبية النداء لتلك العبادة ، وقد فعل الرسول ﷺ ، ذلك للحسن بن علي ، رضى الله عنه.[٥]

---

(٣) محمد نور سويد : منهج التربية النبوية للطفل، مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ص ٢٩ - ٣٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) عبدالمجيد صالح : حقوق الطفل المسلم بين الشريعة والقانون، ضمن بحوث ندوة ثقافة الطفل المسلم، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ، البحرين، ١٩٩٠م، ص ١٣.

ويسري اهتمام التربية الإسلامية العظيمة والرائعة بلبنة المجتمع الأولى، ألا وهي الطفل، فتهتم به بعد ذلك ، اعتباراً من تسميته باسم طيب يعتز به ويستريح عندما ينادي به، ومروراً بحقه في النسب والملاطفة والمداعبة ، والرضاعة الطبيعية، وصولاً إلى حقه في التعليم وحسن التربية والتوجيه، منذ نعومة أظفاره.

إن توجيه الطفل يبدأ منذ نعومة أظافره، فلا مجال للأب أن يسوف أو يؤخر ساعة التعليم إلى أن يكبر الولد، ومن هذا المنطلق المهم جاءت السنة النبوية المطهرة بالتوجيهات للآباء بأن يلتفتوا إلى أبنائهم، وأن يحسنوا تعليمهم وتأديبهم، فقد روى عن رسول الله ﷺ قال : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع ». كما قال أيضا : « ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن » .(رواه الترمذي).[٦]

ويستمر الاهتمام بلبنات المجتمع، ونعني بهم الأطفال الصغار ، ويزداد ذلك الاهتمام حين تتدخل المجتمعات بثقلها في هذا الأمر ، ولا تترك التنشئة في يد الأسرة فقط، حيث أنشأت المدارس التي وثقت فيها ، وعهدت إليها بأمر تنشئة الأطفال والشباب الصغار وتربيتهم، بالإضافة إلى مؤسسات أخرى بجوار المدارس، مثل وسائل الإعلام المختلفة، والأندية والمكتبات وغيرها.

وإذا كانت التربية مهمة ، بهذا الشكل ، بالنسبة للمجتمع على أساس أنها عملية مرادفة للحياة التي تجري داخل ذلك المجتمع، وعلى أساس طبيعة عملها في تشكيل شخصيات أفراده، وبناء مقومات تلك الشخصيات في نطاق الأطر الدينية والقيمية التي وضعها ذلك المجتمع لنفسه، وضمن المعايير التي ارتضاها العقلاء والحكماء في ذلك المجتمع، بحيث يخرجون الأجيال الناشئة على أساسها، حتى يكون التفاعل بين أفراد ذلك المجتمع، وكذا بين جماعاته سهلاً هيناً ليناً، يبتعد عن الصراعات والاحتكاكات.

---

(٦) عدنان صالح باحارث: مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ٨٢.

إذا كان الأمر كذلك فإن وظيفة مهمة من وظائف التربية هي أن تعد الأفراد للحياة داخل المجتمع، بحيث يعرف كل منهم حدود أدواره التي عليه أن يلعبها، وبحيث يعرف ـ في الوقت نفسه ـ حدود أدوار الآخرين.

كذلك فإن التربية تعتبر قوة متحركة (ديناميكية) تدفع بالمجتمع دومًا إلى الأمام، وتعمل على تغييره وتشكيل المؤسسات العاملة فيه، كما أنها في الوقت نفسه تعكس حركة القوى الاجتماعية الأخرى المؤثرة والعاملة في المجتمع..

إذا كانت هذه هي أهمية التربية ، أو بعض أهميتها، وإذا كانت هذه هي خطورة التربية، وما يمكن أن تقوم به في حياة المجتمع، أو بعض خطورتها، فما علاقتها بالثقافة داخل المجتمع.. ؟؟

إن الإجابة على هذا السؤال سوف تكون محور الحديث خلال صفحات هذا الفصل إن شاء الله، خاصة إذا أبقينا في أذهاننا أن المجتمعات الواعية هي التي تلجأ دومًا إلى التربية تستلهمها الحلول الناجعة لمشكلاتها، وهي التي تعتصم بتلك التربية عند حدوث الطوفان وعند الأزمات والكوارث والمشكلات وما خاب سعي أمة لجأت إلى التربية.. والتاريخ الإنساني مليئ بالأمثلة لمن أراد أن يعتبر.

العلاقة بين التربية والثقافة :

لو حاولنا في عودة سريعة، أن نتذكر بعض الأمور التي أوردناها سابقًا عن الثقافة في أحد فصول هذا الكتاب ، لأمكننا أن نربط بينها وبين التربية في يسر وسهولة، إن شاء الله ، وهذه الأمور المتعلقة بالثقافة تتمثل في النقاط التالية :

* إن الفرد زائل وعمره قصير، بينما المجتمع أطول عمراً وأبقى، وأن الثقافة تستمر مع المجتمع ما بقيت الحياة تدب على أرضه، وهذه الثقافة هي آخر ما ينتزع منهما معا.. أي من الفرد ومن المجتمع.

* إن التربية هي الوسيلة الأساسية لاكتساب الثقافة داخل المجتمع وهي كذلك ـ الوسيلة المعينة على تمثل الثقافة وهضمها.. وكذا هي سبب الحفاظ عليها واستمرارها.

* بما أن الثقافة ديناميكية متحركة فإن التربية ينبغي أن تكون كذلك.

* إن الثقافة لا تقتصر على طائفة من طوائف المجتمع، كما أنها ليست حكراً على جماعة من جماعاته، وهكذا ينبغي أن تكون التربية، خاصة إذا فهمناها في معناها الشامل الذي تضطلع بمسؤولياته مؤسسات المجتمع المهتمة بالتربية والتنشئة الاجتماعية.

* الجانب الروحي في الثقافة الإسلامية هو الأساس ، والتربية ـ في المجتمع المسلم ـ مطالبة بالتركيز عليه ، بل وبالبدء به ، فهو أصل البناء وركيزته الأولى، وينبغي أن تكون التربية هي أحجار الزوايا في كل ركن من أركان البناء، بناء الفرد.. وبناء المجتمع.

* القيم الإسلامية مطلب رئيسي ينبغي التركيز عليه في البناء التربوي للمجتمع المسلم، وهي كثيرة ومتنوعة ، فمن الوفاء بالعهد، إلى التحلي بالصبر ، ومن احترام الكبير، إلى العطف على الصغير ، ومن طاعة الوالدين والإحسان إليهما، إلى العناية بالأسرة والإخلاص لها ، ومن رعاية الجار والصديق، إلى الاهتمام بمجتمع المسلمين عامة.. إلخ.

* الثقافة تنمو وتتراكم داخل المجتمع، بحكم خبرات الحياة فيه، وبحكم احتكاكاته، على مر السنين، مع ظروف الحياة، ومع تعدد أنواع المناشط فيه، وكذا بحكم تعاملاته مع غيره من المجتمعات.. أفراداً وجماعات، والتربية ذات دور أساسي في حسن الانتقاء وجودة الاختيار من بين كم الخبرات الهائل والمتراكم دومًا، كي تقدمها للناشئة من أبناء المجتمع.

الربط المحدود والقاصر بين الثقافة والتربية :

هذا، ولقد حاول عدد من التربويين أن يربطوا بين الثقافة والتربية، ولكن

ربطهم ، في محصلته النهائية، جاء مركزاً على العلاقة بين الثقافة والتربية.. كما تمثلها المدرسة فقط، واقتصر هذا الربط على ما ينبغي أن تقوم به المدرسة تجاه الثقافة بمكوناتها الثلاثة : العموميات والخصوصيات والمتغيرات، وكيف أن التربية (المدرسة) ينبغي أن تؤكد على «العموميات»، وأن تعمل على شيوعها بين أبناء المجتمع الواحد بحيث تعمل على تماسك البناء الاجتماعي وعلى قوة ترابطه وتلاحمه مع بعضه البعض ، بينما يأتي التأكيد على «الخصوصيات » من خلال دورها في إعداد طوائف من أبناء الأمة لتولي مسؤوليات متخصصة يقوم فيها أبناء كل طائفة بسد احتياجات المجتمع من التخصصات المطلوبة، وأخيراً فإن التربية (المدرسة) ينبغي أن يكون لها موقف من « المتغيرات » موقف ناقد واعي ، بحيث تقبل منها ما يتمشى مع فكر الأمة ، ومع توجهاتها، وبالدرجة الأولى مع عقيدتها وقيمها ومثلها العليا، بينما ترفض وتؤكد رفضها لكل « متغيرة » تحسب أنها قد تمس هذه الجوانب المهمة من قريب أو بعيد.

ولنقرأ معًا بعض ما كتبه عدد من التربويين في هذا المجال ، والذي يؤكد المعنى السابق حول العلاقة بين الثقافة والتربية : « إن الثقافة المتكاملة قد أصبحت موضوع التعليم (أي أنها من صميم عمل المدرسة .. ولذا جاء الحديث عن المدرسة وليس عن التربية) في عصرنا الحاضر بغرض تخريج الفرد المتكامل، عقلاً ونفسًا ويداً وجسمًا، وتتدرج هذه الثقافة في مستوياتها ونوعياتها تبعًا لطبيعة المرحلة التي يمر بها المتعلم ، فالمرحلة الإبتدائية تقدم ثقافة عامة أولية لكل الأطفال ، ثم تتعمق نوعًا في المرحلة التعليمية الوسطى (الإعدادية) ، ثم تتعمق أكثر في المرحلة الثانوية، مع وجود نوع من التخصص المتسع في شعب دراسية رئيسية ، ثم تتعمق كثيراً مع التخصص المهنى والدقيق في المرحلة الجامعية» (٧).

وهكذا نرى الربط حتى بين مراحل التعليم المختلفة وبين عموميات

---

(٧) محمود قمبر وآخران : دراسات في أصول التربية ، دار الثقافة، الدوحة ، قطر ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١٤٣.

الثقافة وخصوصياتها والمتغيرات، مما يؤكد على الفكرة التي سبق وبينًّاها ، وهي قصر قضية التربية ـ في التعامل مع الثقافة ـ على ما تقوم به المدرسة، وبيان دور التربية المدرسية في التعامل مع الثقافة بمكوناتها.

إن خطورة هذا التصور ـ في رأينا ـ تكمن في إهمال أدوار المؤسسات التربوية الأخرى الفاعلة في المجتمع كالأسرة، والمسجد، والنادي الأدبي، والنادي الرياضي، والمكتبة العامة، والمكتبة المدرسية.. إلخ، وكذا في إهمال التعامل مع الثقافة بشيئ من العمق والوعي. وهذا التناول في حقيقة الأمر يغمط «التربية» حقها من جانب ، ويسطح التعامل مع « الثقافة » من جانب آخر، وكلاهما.. أي « الثقافة » و « التربية » لا ينبغي التعامل معها بهذه البساطة، ولا بهذا التسطيح ، لخطورة موقعهما من المجتمع، ومن مسيرة الحياة فيه، بل ومن التأثير في حاضره، وكذا في رسم صورة مستقبله.

العلاقة بين الثقافة والتربية بمعنيهما الشاملين الواجبين:

وبالفهم الشامل للثقافة وللتربية يمكننا أن نلخص العلاقة بينهما في النقاط التالية :

أولا : دور المؤسسات التربوية .. جميعها :

حينما نقول : إن « الثقافة » مرادفة للشخصية فإننا ينبغي أن نؤكد على دور مؤسسات المجتمع التربوية كلها (الأسرة ـ المسجد ـ المدرسة ـ وسائل الإعلام الأندية الأدبية والثقافية والرياضية ـ المكتبات العامة ـ بالإضافة إلى كل مؤسسة اجتماعية يمكن أن يكون لها إسهام تربوي من أي نوع) في بناء هذه الشخصية، ومنذ اللحظة الأولى التي يتفتح فيها الطفل على أمور هذه الحياة.

إن الأسرة ، على سبيل المثال ، مطالبة بأن تغرس « ثقافة المجتمع» في شخصية الطفل، بكل ما فيها من قيم أخلاقية ، ومعايير اجتماعية وعادات طيبة، بحيث يعرف ـ منذ بدايات حياته الأولى ـ معنى الحلال والحرام ، ومعنى

الصواب والخطأ، ومعنى ما هو جميل وطيب ونافع ومفيد ، ومعنى ما هو عكس ذلك ، وأن يكون تعريف الطفل بتلك الأمور عن طريق القدوة الحسنة في حياته، وبواسطة خبرات حية محسوسة، وليس عن طريق مجرد الكلام الذي قد لا يؤتي أكله إذا لم تصاحبه مواقف واقعية حية وخبرات عملية ملموسة، يحس بفائدتها في حياته إذا كانت طيبة، وبوقعها المؤلم ومرارتها الفعلية، إذا كانت غير ذلك.

وفي الوقت ذاته الذي تفعل فيه الأسرة ذلك فإن وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة التليفزيون، مطالبة بأن تظهر كل ذلك في برامجها وتمثيلياتها، بحيث لا يتعارض ما يذاع وما يبث مع ما تقوم به الأسرة ، تجنبا لنشوء أنواع من التعارض والصراعات التي قد تنشأ بين ما تقدمه المؤسستان التربويتان، نتيجة اختلاف «الرسالة» التي يود كل منهما أن يوصلها للأجيال الناشئة أو الصاعدة من أبناء المجتمع، والتي هي رصيد الأمة، أي أمة، في حياتها المستقبلة.(*)

إن غرس بذور الثقافة.. ثقافة المجتمع في نفسيات وشخصيات وعقول وأرواح الناشئة ، تبدأ من هنا، نقصد من بدايات مرحلة الطفولة، ويستمر الغرس، وتستمر العناية مع الفرد طوال مراحل عمره، ولكن مرحلتي الطفولة والمراهقة المبكرة تعتبران من أحرج المراحل في حياة الكائن البشري، وببساطة شديدة لأن الطفل والمراهق الصغير يكونان في مرحلة التلقي غير الناضج وغير الواعي، ومن هنا تأتي خطورة ما يلقى في نفوس أصحابها من بذور ، ومن هنا - كذلك - تأتي مسؤولية القائمين على أمر التربية فيهما، حيث يتم وضع اللبنات الأولى في بناء الشخصية في هذه المراحل.

ونموذج نبينا محمد ﷺ في تعامله مع الأطفال، وفي تربيته لهم، وفي توجيه المسلمين لتلك التربية ينبغي أن يكون النموذج الذي نقتدي به نحن التربويين ، والذي ينبغي أن نقدمه لكل مؤسسات المجتمع المهتمة بأمر تربية

(*) يمكن .. لمن أراد مراجعة كتاب « التليفزيون وتربية الأطفال» ، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ومن ترجمة المؤلف.

الناشئة، وعلى رأسها الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام، نقدمه للمسؤولين فيها جميعًا كي يضعوه أمام ناظريهم، وهم يحاولون بناء شخصيات الأطفال والمراهقين.

نماذج تربوية من حياة الرسول ﷺ :

إن الطفل يحتاج ، من أجل نمو شخصيته نموًا متكاملاً متناسقًا ، إلى الفهم ، وقد كان الرسول ﷺ أقرب ما يكون.. وأحب ما يكون إلى قلوب الأطفال والمراهقين الصغار لدرجة أنهم كانوا أسرع من حوله من أهله استقبالاً له عند عوته من أسفاره، كما يقول « عباس العقاد » رحمه الله ، والأطفال لا يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يشعرون أن صاحب الرسالة ﷺ كان يتفهمهم، ويشعر بهم، ويعرف كذلك مطالبهم، بل ويستجيب لحاجاتهم، وبألفاظه يقول العقاد : «كان ﷺ أرحم الناس بالصبيان والعيال ، وأنه كان إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته ».(٨)

والمتمعن في العبارة التي أوردها «العقاد» رحمه الله، وهو المعروف بانتقائه للألفاظ واختياره للعبارات، يفهم أن الصبيان والأطفال، من أهل بيت النبي ﷺ كانوا هم الذين يهرعون إليه عند عودته من أسفاره، ومعروف أن الأطفال في سنهم الباكرة يعيشون ويتصرفون على الفطرة ، وأنهم يسلكون بطبيعتهم.. دون تصنع أو افتعال، ومن هنا فإن اندفاعهم نحو الحبيب الغائب.. العائد من السفر، وهو القريب من نفوسهم، يبين ويوضح مدى عمق الصلة التي كانت تربطهم به، وتقربهم إليه، وتقربه هو ﷺ إليهم، وكل ذلك رغم مشاغله الهائلة في أمور الدعوة والتبليغ، وفي رعاية شؤون المسلمين، لأن كل ذلك ما كان يصرفه عن متابعتهم ومداعبتهم ورعايتهم، بل والسؤال عن أحوالهم، وما يشغل بالهم، حتى إنه «كان يواسي في موت طائر (!!!) يلهو به أخو خادمه..!!».(٩)

---

(٨) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد ، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٢٥.

(٩) المرجع السابق، ص ١٢٣.

وبالنسبة للشباب الصغار فإن تنمية شخصياتهم ينبغي أن يركز عليها من خلال التربية السليمة التي تركز على مطالبهم ، في إطار قيم المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، وهؤلاء الشباب ينبغي أن يركز في تربيتهم على « المثل » وعلى « النموذج» . وليس هناك أروع ولا أعظم من النموذج الذي كان يمثله رسول الله ﷺ بالنسبة لأصحابه، من خلال تعامله مع الشباب منهم ، وكيف كان يعاملهم، ويثق فيهم وفي قدراتهم، بل وكيف كان يوليهم أعظم المسؤوليات بالنسبة لنشر الدعوة ، في السلم والحرب.

إن مناهج مدارسنا ، وبرامج ومسلسلات وسائل إعلامنا ، وكذا خطب الأئمة في مساجدنا، ولقاءات علمائنا ومفكرينا وأدبائنا في نوادينا، ينبغي أن تركز على إظهار هذه النماذج الشابة التي ربيت في أحضان الدعوة الإسلامية، على يد خير من علّم وربى، بل وأشرف ووجه مجتمعا بأكمله، ﷺ ، وكان من نتيجة هذه التربية المحمدية الرائعة أن خرّجت للعالم أمة ـ لم يظهر لها مثيل في تاريخ الأمم والشعوب، ويكفي أن أتاها الثناء من ربها، جل وعلا، من فوق سبع سموات :« كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وصدق الله العظيم. (آل عمران/ ١١٠).

إن شبابنا ينبغي أن تنمى شخصياتهم في ضوء شخصيات الشباب المسلم الذي كان دعامة هائلة من دعامات الإسلام الأولى، ورسم هذه الشخصيات من جديد في كل مؤسساتنا التربوية مطلب أساسي لا ينبغي التنازل عنه، أو التفريط فيه، ونماذج الصحابة من الشباب الذين كانوا حول رسول الله

ﷺ كثيرة، وبلا حصر، ولكن يمكن الإشارة إلى بعضهم من أمثال : مصعب بن عمير ، عبدالله بن عمر ، علي بن أبي طالب، معاذ بن جبل، عمار ابن ياسر، زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبدالله بن أبي رواحة، خالد بن الوليد، أسامة بن زيد، وغيرهم كثير كثير . (*)

ثانيًا : التربية والتأكيد على النواحي الروحية والفكرية والعاطفية :

عندما نقول عن « الثقافة » أنها تشتمل على النواحي الروحية والفكرية والعاطفية ، بجانب النواحي المادية ، فإن ذلك ينبغي أن يكون واضحًا لدى مؤسساتنا التربوية كلها، بحيث تؤكد عليه في تربيتها للأطفال وللشباب الصغار ، خاصة وأن موجات المادية التي طغت على كثير من أركان المعمورة بدأت تنساح في بلاد المسلمين بحيث صارت حسابات البنوك، واقتناء الماديات، والإكثار من الشراء، خاصة في دول الوفورات المادية، صارت وكأنها أصبحت هدفًا لذاتها.

إن مطالب اقتناء السيارات، وتغيير موديلاتها كل عام، وهي سيارات من أنواع خاصة ، وموديلات مترفة تدفع فيها كميات هائلة من الأموال ، لشباب صغار لم يعرفوا بعد كيف يقفون على أقدامهم ، لا يخدم بناء شخصياتهم، ولا يقدم للمجتمع شبابا يتحملون المسؤولية، أو يستشعرون معنى العمل ، أو معنى الواجب ، لأنهم سوف يتعودون على المطالبة بما يتصورون أنه حق لهم نشئوا على أساسه، وهذا النمط من الشباب لا يخدم

(*) لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع يمكنه الرجوع لكثير من الكتب التي تناولت صحابة رسول الله ص ومنها:

(١٠) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، دار الفكر، بيروت، (بدون تاريخ).

(١١) عبدالرحمن عميرة : رجال أنزل الله فيهم قرآنا (سلسلة من سبعة أجزاء) ، دار اللواء ، الرياض، ١٣٩٨هـ.

(١٢) أعلام المسلمين (وهي لعدد من المؤلفين، وصدرت عن عدد من الصحابة) ، دار القلم ، دمشق، بيروت.

أمته، ولا يصلح لبناء مجتمعه، ولا حتى لفهم قضاياه، ولن يفهم ـ قطعًا ـ مشكلات ذلك المجتمع.

إن مجتمعًا يخرِّج أنماطًا من الشباب الصغار لا يكون همهم إلا الإنفاق والبذخ والاقتناء والإسراف ، هذا المجتمع يقتله الترف قبل أن يفكر في تحقيق أمانيه في البناء والتنمية والتعمير ،خاصة حينما يكبر هؤلاء الشباب والأطفال، وحينما يتولون مسؤولية العمل في مؤسسات مجتمعهم.

ولقد خبرنا مجتمعات من أغنى وأثرى ما يمكن، ولكن الكبار فيها كانوا واعين لهذا البعد المادي الخطير فلم يتيحوا لأبنائهم أن يغترفوا منه كيفما شاءوا، وإنما درَّبوهم على العمل، وربوهم على تقدير قيمة ذلك العمل، منذ الصغر، بحيث أن الشباب الصغار كانوا يعملون في مزرعة من مزارع آبائهم، أو في بعض مصانعهم، مثلهم تمامًا. مثل أي عامل صغير، يحضرون في المواعيد منضبطين، وهم كذلك ينصرفون منضبطين، ولا يتقاضون من الأجور إلا مثل ما يتقاضى العامل العادي تمامًا، ولقد حمدت تلك التربية خاصة حينما تولى هؤلاء الأبناء أمر تلك الثروات الهائلة، سواء في حياة آبائهم، أو بعد مماتهم، لأنهم عرفوا كيف يحافظون عليها، وكيف يديرونها بحكمة وحنكة وذكاء.

ومن جانب آخر فإن مؤسساتنا التربوية ،كلها ، مطالبة بأن تغرس في نفوس الناشئة أنه ليس بالمال وحده يحيا الإنسان، وأن هناك النواحي الروحية والفكرية والعاطفية، تلك التي تربط الإنسان بربه ، والتي تربطه ـ بعد ذلك ـ بأفراد مجتمعه من حوله . بل إن المال قد يفرق الناس عن بعضهم، بل وأكثر من ذلك أنه قد يدفعهم للتقاتل والتناحر فيما بينهم، ولكن الحب في الله، والعاطفة الجياشة الصادقة، والمودة الخالصة، والرحمة المتبادلة، والإحساس بالمشاركة ، والتفكير والاهتمام بمشكلات الآخرين، ومحاولة العمل على مساعدتهم في حلها، أو على الأقل إيجاد الطرق والوسائل الكفيلة بحلها.. إلخ كل ذلك يوثق عرى المجتمع ، ويجعل أفراده متحابين متقاربين، وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول: «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم».

ومن هنا فإن المؤسسات التربوية في مجتمعاتنا مطالبة بأن تنهل من هذا النبع العظيم، نبع التربية الإسلامية التي قدَّم لنا فيها سيد الخلق أجمعين محمد بن عبدالله ﷺ ، خير النماذج وأجلها وأروعها. إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين بعث محمداً ﷺ ، لم يرسل معه جبالاً من ذهب، ولا خزائن من مال ، ولا آباراً من بترول، ولا أرصدة بالبلايين، وإنما هو ـ سبحانه وتعالى ـ أرسله ومعه رسالة هي في أول أمرها ومنتهاه « رحمة للعالمين » ، وبنص الآية الكريمة «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ».

ومن هنا كذلك فإن تربيتنا ، لكي تخدم ثقافتنا ، ينبغي أن تركز على هذا البعد المهم، وأن تعطيه حقه، من الأسرة.. في نصائح الوالدين وتوجيهاتهما ، وضربهما الأمثلة الطيبة أمام أولادهما ، إلى المدرسة في مناهجها وبرامجها وخطط تعليمها ، إلى أوجه نشاطها الصفية وغير الصفية، إلى معاملات المعلمين، وكذا أفراد الإدارة المدرسية كلها ، مع أبنائهم الطلاب ، إلى تعاملات الطلاب فيما بينهم ، داخل الصف الدراسي.. وخارجه، في أفنية المدارس ، وفي المخيمات التربوية والمعسكرات وغيرها ، إلى وسائل الإعلام في برامجها وأفلامها وتمثلياتها ومسلسلاتهاو مقابلاتها وحواراتها مع أهل العلم والفكر والفن والسياسة والقتصاد ، إلى المسجد في خطبه ومواعظه ، ولقاءات المسلمين فيها مع الأئمة ، ومع بعضهم البعض لمناقشة مشكلات المجتمع المحيط بالمسجد ومشكلات الوطن ، بل ومشكلات الأمة الإسلامية عامة.. إلخ.

والأمثلة ، كما سبق القول ، ينبغي أن تؤخذ وأن تضرب من خير مجتمع ظهر على وجه الأرض، والذي يصلح نموذجا حيًا رائعًا يقتدي به، للبشرية جميعًا ، ألا وهو مجتمع الصحابة العظام الذين رباهم خير معلم وأشرف مجتمع أخرج للناس، عليهم رضوان الله أجمعين. إن في قصصهم ومواقفهم، في جميع مناحي الحياة، نماذج رائعة للتربية التي نريدها لمجتمعاتنا الإسلامية ، بل إن هذه النماذج لأكثر من رائعة، ويكفينا أن نشير من بعيد إلى «مجتمع المدينة المنورة»، حين جاءها الرسول ، ﷺ ، والمهاجرون معه، وقد تركوا وراءهم في مكة كل ما كانوا يملكون من متاع الدنيا الزائل، بل إن بعضهم قد ترك كثيراً

من أهله وأحبائه، وآثر أن يفر بدينه حتى لا يفتنه الذين كفروا ، أو يردوه عن الإسلام.

وحين وصلوا إلى إخوانهم في الدين ، في المدينة المنورة حدث شيء لم يقع قبل ذلك في أمة من الأمم ، على مر عصور التاريخ، كما أنه لم يقع بعد ذلك في أي أمة من الأمم، غنية كانت أو فقيرة ، غربية كانت أو شرقية، متقدمة كانت أو متخلفة، فبكلمات قلائل من سيد الخلق أجمعين ﷺ ذابت الفروق بين الجميع ، بين مهاجر وأنصاري ، بين وافد وصاحب دار، بين غني وفقير، بين سيد وعبد، بين أبيض وأسود ، فإذا الجميع إخوة متحابون في الله، يجمعهم رباط العقيدة المقدسة فيذيب كل ما بينهم من فروق.

يطلب منهم المصطفى ﷺ أن يتآخوا في الإسلام، فيأخذ كل أنصاري من المدينة مهاجراً من مكة يتقاسم معه كل ما يملك ، حتى إن بعضهم يريد أن يتنازل لأخيه عن أخص خصوصياته. ولعمري إن أقوى القوى في العالم لا يمكنها أن ترغم الإنسان على أن يتنازل عن ممتلكاته لشخص آخر، بل إن روسيا الشيوعية في بداية فرضها للنظام الشيوعي على مجتمعات روسيا اضطرت لضرب ملايين منهم بالرصاص ، بل وأحرقتهم وأحرقت معهم مزارعهم وقراهم حتى يوافقوا على نظام « المزارع الجماعية » التي تشرف عليها الدولة، ولقد قاوموا بكل ما وسعتهم حيلهم حتى إن بعضهم قد سمم الحيوانات، وأحرق المزارع والمحصولات التي كان يمتلكها حتى لا تأخذها منه الدولة عنوة..!!

أما هنا في « المدينة المنورة » ، وحيث المجتمع المؤيد من السماء، والرسول المبتعث رحمة للعالمين، فما كانت إلا كليمات قالها النبي المرسل، والهادي البشير ﷺ، ويقينا فإنه قالها في المسجد ، محور نشاط المسلمين في عهدهم الجديد بعد الهجرة، فإذا كل صحابي أنصاري يخرج من المسجد ، وفي يده صاحب مهاجر يتجه به إلى منزله ، وهو في قمة السعادة أن مكنه الله من أن يكون مضيافا لأخ له في الإسلام، يقوم على حاجته، ويراعي فيه الله ورسوله ﷺ وينفذ أمر السماء ، وتصبح المدينة في اليوم التالي فإذا مجتمعها أفراده قلوبهم ملتفة حول بعضهم، ونفوسهم راضية سعيدة بنعمة الإيمان، وما

كان عجبًا بعد ذلك أن تنزل الآيات القرآنية الرائعة من فوق سبع سماوات تطريهم وتمتدح أفعالهم وأخلاقهم، حيث اختفت « المادة » بكل ما تعنيه من بينهم، وحل محلها الإخاء والحب، والود والصفاء ، وصار الواحد منهم » يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. قولاً وعملاً.. لا شعارات وأقوالا، ولنقرأ قول الله عز وجل ، وهو أصدق القائلين : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا ، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (الحشر /٧-٩) وصدق الله العظيم.

ثالثا : التربية.. وماذا يبقى مع الفرد حتى آخر لحظة في عمره:

حينما يقال إن الفرد زائل، وأن المجتمع أطول عمراً ، وأن الثقافة تبقى مع المجتمع، وأنها آخر ما ينتزع من الفرد والمجتمع فإننا ـ نحن التربويين ـ ينبغي أن نؤكد على أن الجانب الديني والروحي والقيمي هو الذي يعنينا في هذا المجال، فكل الجوانب المادية في الثقافة، مهما كانت قيمتها ، لا تساوي شيئًا في نظر الإنسان عند مواجهته الموت، ولكن هناك العقيدة التي يفتديها المؤمنون بأرواحهم، والتي يستشهدون في سبيل الله من أجل بقائها وإعلائها ، بل ومن أجل تمكينها في الأرض.

إن التربية ، من خلال جميع مؤسساتها، ينبغي أن تؤكد على هذه المعاني، فلا قيمة لمجتمع بلا عقيدة، ولهذا أكدت سنة المصطفى ﷺ على فريضة الجهاد ، تلك التي أكد عليها المولى عز وجل في محكم آياته ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾، كما نص، سبحانه وتعالى، على أن يتمسك المسلمون بدينهم، بحيث لا يتركون هذه الحياة، بمادياتها وزخارفها، إلا وهم.. مسلمون ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وليس هناك أعظم من هذا الأمر في

طلب الاستمساك بالدين الإسلامي الحنيف، وبالحرص عليه، بل وبالعض عليه بالنواجذ ، حتى آخر لحظة من عمر الإنسان ، حتى عند مواجهته الموت.

إن التاريخ يحدثنا عن شعوب ومجتمعات، وأمم وامبراطوريات سابقة، زالت من التاريخ ، من قوم نوح إلى قوم لوط،ومن فراعنة مصر إلى حكام اليونان، ومن أباطرة الرومان إلى مجوس فارس، وقد زالوا جميعا من الوجود، وأصبحوا عبرا لغيرهم لأنهم استمسكوا بالدنيا وبكل متاعها الزائل، وماتوا وهم يدافعون عن ممتلكاتهم وكنوزهم وزخارف دنياهم، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ فتلك بيوتهم خاوية لم تسكن من بعدهم ﴾ ، وأيضًا قال ﴿ كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾.

والعبرة والعظة التي ينبغي أن نركز عليها في تربيتنا لأجيالنا الصاعدة هي أن هذه الجوانب المادية من حياة الأمم والشعوب زائلة ومتروكة ، بل إن أصحابها إذا لم يستخدموها فيما يفيد عقيدتهم ودينهم ، فإنه سوف يأتي من يرثها منهم ويستفيد منها ﴿ كذلك وأورثناها قومًا آخرين ﴾.

وفي عصرنا الحاضر فإن هناك مجتمعات أوغلت كثيراً في الجوانب المادية بحيث أصبحت محور حياتهم.. أفراداً ومجتمعات، وصار الحساب الوحيد عند بعضهم هو حساب العناصر المادية، من دخول الأفراد، ومدى ارتفاعها ، إلى استهلاك هؤلاء الأفراد للطاقة، إلى أكلهم لكميات معينة من البروتينات على مدار أيام العام، إلى شبكات الطرقات التي يستخدمونها، وكم هو نصيب الفرد من عدد الكيلومترات المرصوفة منها.. إلخ.

ولقد نسي هؤلاء الحاسبون أن هناك أموراً أخرى أعز وأهم وأغلى في حياة البشر من مجرد حساب عناصر المادة واستهلاكها. لقد نسوا وغاب عنهم الجانب الروحي ، وهو عنصر أساسي ومؤثر في نفسية الإنسان ، وفي بناء شخصيته، ولذلك خرجت كتابات عديدة لتبين أن أفراد أرقى المجتمعات على وجه الأرض ، وهم ـ للعلم ـ أهل السويد ، ليسوا بالضرورة أسعد البشر، وقد دعمت هذه الكتابات بالإحصاءات الموثقة التي تبين أن أعلى نسب الانتحار في

العالم.. توجد هناك، أي في السويد ، على الرغم من المستويات المادية الرفيعة المتقدمة التي يتمتع بها المواطنون هناك.

كذلك فإنه لا يغيب عنا مقالة السيناتور الأمريكي « وليم فولبرايت » رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس الأمريكي لعدة دورات متتالية ، وأحد أشهر حكماء المجتمع الأمريكي، حين نطق الرجل بالحكمة ، في يوم أشهر من أيام شهر يوليو عام ١٩٦٩م، وذلك حين نجح الأمريكيون في وضع أول إنسان على سطح القمر، في سابقة علمية وتكنولوجية، لم تلحق من بعدهم حتى يومنا هذا ، وقد جن الأمريكيون من الفرح لنصرهم هذا ، وهم يرون علم وطنهم يغرس متفرداً فوق تربة القمر ، كما فرح معهم عدد هائل من أفراد مجتمعات دول أوروبا الغربية المشايعة لهم، ولكن الرجل الحكيم - فولبرايت ـ لم يغره هذا النصر « العلمي » و « التكنولوجي » الذي حققه قومه في مجال الفضاء، وإنما عاد ببصره فوراً إلى حقائق الحياة على الأرض الأمريكية، فائلا قولته المشهورة « حقا .. لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر، ولكن أقدامنا مازالت مغروسة في الوحل »..!!

وعلى وجه اليقين فإن الرجل المسؤول كان يعي تماما كم وحجم المشكلات والمآسي التي يعاني منها مجتمعه، والتي تتراكم إحصاءاتها على رفوف «مكتبة الكونجرس » ، أشهر مكتبات العالم وأضخمها، وكانت تلك الإحصاءات، ولازالت، تتحدث عن مشكلات مجتمعية كبرى، ومآسي أخلاقية بلا عدد، وجميعها لا يمكن غض الطرف عنها، أو المرور عليها مر الكرام، فمن اتساع انتشار الجريمة المباشرة بالسلاح (القتل العمد) إلى الاغتصاب ، ومن الخطف إلى السرقات، ومن شيوع إلقاء الأطفال اللقطاء في الشوارع، نتيجة للعلاقات غير السوية، إلى انتشار الشذوذ ، ومن الاعتداءات على كبار السن، حتى الوالدين.. بل وحتى الأجداد (!!!).. إلى غير ذلك في سلاسل لا تنتهي من المآسي والمشكلات التي يعاني منها مجتمع هو في نظر كثيرين أقوى المجتمعات التي ظهرت على وجه الأرض في التاريخ البشري، ولكن .. غابت الروح.. وغاب الإيمان، فاختلت الموازين، وتلك هى طبائع الأمور ، وتلك هي ـ

أيضًا - الحكمة البالغة التي علينا أن نعيها، وأن نربي أبناءنا عليها، وهي أنه ليس بالمادة وحدها يحيا الإنسان.

إن هذه الأوضاع ينبغي أن تكون دافعاً لنا نحن التربويين في أن نعيد النظر في مناهجنا وخططنا الدراسية، وفي كل برامجنا التعليمية لنؤكد على الجوانب الروحية والقيمية والأخلاقية حتى تدخل في نسيج شخصيات أبنائنا من الأجيال الصاعدة بحيث يشبون وهم متمسكون بها، حريصون عليها، وأعون لأهميتها في حياتهم وحياة مجتمعهم.

هذا في المدارس، وفي باقي المؤسسات التربوية الأخرى التي ذكرناها من قبل ينبغي أن يركز على هذه الجوانب - الروحية والقيمية والأخلاقية - بحيث تكون هي المحور الأساسي في عملها، وفي تربيتها للناشئة ولأفراد المجتمع كله، ويكفي أن نفكر في وسائل الإعلام وما يمكن أن يقدم فيها، ومن خلالها، بهذا الخصوص.

رابعا: ينبيغي أن تكون التربية في مثل ديناميكية الثقافة:

الثقافة - حقًا - ديناميكية متحركة، وقد كتب عنها المتخصصون في شؤون التربية والمجتمع، وبجانبهم أيضًا المهتمون والمفكرون، وبما أن التربية هي الوسيلة الأولى والأخيرة لإكساب أبناء المجتمع عناصر ثقافتهم فإن هذه التربية لا ينبغي أن تتخلف عن ركب الثقافة المتحرك دومًا، بل والفوار بالحركة في كثير من الأحوال، وخاصة في هذه الأيام التي تواجه فيها الثقافة العربية والإسلامية تحديات كبرى من الوافدات الثقافية الأجنبية، وخاصة ما تبثه القنوات الفضائية التي أخذت تتكاثر في المنطقة العربية، وبالذات في منطقة الخليج العربية.

إن هناك الكثير من المتغيرات Alternatives التي بدأت تغزو منطقتنا العربية، وبالذات منطقة الخليج العربي، والتي كانت تعتبر منطقة ذات خصوصية نوعية حيث احتفظ أهلها بخصائصهم الثقافية، داخل مجتمعاتهم، لمئات من السنين، وبالذات في قلب الجزيرة العربية، ولكن هبوط ثروة البترول بشكلها المفاجئ الذي حدث بالمنطقة، وخاصة بعد حرب رمضان المجيدة، عام ١٣٩٣هـ (اكتوبر ١٩٧٣م) أدار عقول الكثيرين من أبنائها، كما أنه جذب

إليها الكثير من حيتان العالم الاقتصادية والسياسية والإعلامية، والعقلاء المخلصون في عالمنا العربي الإسلامي لا يمكنهم أن يتغافلوا عن ذلك الأثر الخطير، أو يغضوا الطرف عنه.

ومن المعروف أن المتغيرات هي وسائل نمو الثقافات المختلفة، خاصة إذا أثبتت هذه المتغيرات أنها يمكن أن تعمل لصالح أصحاب الثقافة التي تصل إليها، وبعض هذه « المتغيرات » قيد يتحول إلى « خصوصيات »، والبعض الآخر قد يصبح من « العموميات »(*)، ولكن المشكلة تتضح إذا علمنا أن بعض هذه « المتغيرات » التي وفدت إلى منطقة الخليج العربية ليست في صالح تلك المنطقة، ولا في صالح أهلها ، ولعلنا فقط نذكّر بالمدارس الأجنبية المنتشرة في بعض دول الخليج العربية، وقد سبقت الإشارة إليها من قبل.

كذلك هناك القنوات الفضائية العديدة التي انتشرت أجهزة استقبالها فوق أسطح العمارات والفيللات في أنحاء كثيرة من مدن الخليج، ثم إن الإسراف قد أصبح علامة مميزة على تصرفات أعداد ليست بالقليلة من أبناء الخليج، خاصة من بين فئات الشباب الذين قد لا يقدرون النعمة التي أرسلها الله لهم حق قدرها، ثم إن هناك قضية السفر للخارج طلبا للسياحة والمتعة وتضييع الوقت ، ويضاف إلى ذلك عودة بعض الشباب من الخارج وهم يحملون معهم بذور تقليد لمجتمعات أخرى تختلف عنا في الكثير من قيمنا، بل وتتصادم عقائدهم مع عقيدتنا الإسلامية.

والعبرة المهمة هنا هي في موقف التربية من تلك الديناميكية المتحركة للثقافة والتربية ـ كما سبق وأكدنا مراراً خلال هذه الدراسة ـ بمؤسساتها كلها، فلا يعقل أن تظل مدارسنا ، بمناهجها ومقرراتها، وطرق تدريسها ، وأوجه النشاط فيها، تعمل بأساليبها القديمة التي كانت سائدة منذ أكثر من عقود ثلاثة، وكأن شيئا لم يكن..!! وكأنه لم يحدث من حولها أي تغير.. !!

إن المناهج التي تدرس للأطفال والشباب ينبغي أن يعاد النظر فيها

(*) سبق شرح هذه المعاني في أحد فصول هذا الكتاب .

جـذريًا، في كل شيء، من الأهداف إلى المحـتـوى، ومـن طرق التـدريس إلى التقـويم، ومن التـخطيط التـربوي إلى النشـاط بأوجهه المختلفة.. الصفية وغـيـر الصفية، وذلك من منطلق أن ما كان يدرس لأجيال سابقة (منذ أكثر من ثلاثين عـامًا) لا يمكن أن يصلح، كمـا هو دون أدنى تغـيـير ، رغم اخـتـلاف الأوضـاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من حول المدرسة.

ثم إن مؤسـسـاتنا الإعـلامـيـة ينبـغي عليـهـا أن تكون واعيـة لهذا البـعد الخطير ، أي بعد ديناميكية الثقافة و وحركتها السريعة، كما أن عليها أن تعيد النظر فـيـمـا تقدمـه لأبنـاء أمـتـهـا، واضـعـة في اعـتـبـارها أن تقليـد الإعـلام في مـجـتـمـعـات أخرى مـختلفـة عنا ليـس هو المطلوب، وإنما المطلوب الذي يجب أن يؤكد عليه كل تطوير أو تجديد ينبغي أن يصب في قـضيـة أسـاسيـة لا يـختـلف عليـهـا أحد، ألا وهي قـضـيـة الهـوية، أي هوية المجتمع الذي تنتسب إليـه هذه المؤسسـات الإعلامـيـة، والتي تعمل على تربية الأجيال الناشئة والشـابة من أبنـاء ذلك المجتمع.

إن بعض القنوات الفـضـائيـة التي تبث في منطقـتنا ـ القنوات العـربيـة للأسف الشـديد ـ حسبت أن التغـيـيـر يكمن في مجـاراة إعلام « الآخرين » الذين يخـتـلفـون عنا في الجذور، وخـاصـة القنوات الغـربيـة المبـتذلة، فـجـاءت لمشـاهديـهـا بمسخ من الأفـلام والبـرامج والمسلسـلات والتـمـثـيليـات لا تقل في انحـرافـهـا وتفاهتها عـمـا يبث لنا من الغرب، وأحيـانًا من الشرق، عن قـصـد وسـبق إصـرار، وتلك كارثة تربوية، وسقطة إعلاميـة خطيرة لا ينبغي السكوت عليها ، أو تركـهـا تمر هكذا دون تنبيه أو تحذير.

ثم إن أئمـة المساجد في مـجـتـمـعـاتنا عليـهم أن يعـوا بعـد الديناميـكيـة والحركة في هذه المجتمعات، ومن ثم عليهم أن يتـعاملوا في خطبهم ومـواعظهم مع التغـيـرات المختلفة التي تجري من حول المساجد، بحيث يبينون موقف الإسلام العظيم من هذه المتغيرات ، وكذا موقفه الفعال والإيجابي من المشكلات الناجمة عنهـا، حيث أنه من غـيـر المناسب أن يذهب الشبـاب إلى المساجد ليـجدوا بعض أئمـتـهـا وهم يخطبـون من ورق أصفر عـفـا عليـه وعلى موضوعـاته الزمان، كمـا أن

هذا البعض من الأئمة والخطباء يتعاملون مع أمور الحياة الحاضرة بمنطق عجيب يفترض أن هذه الحياة ثابتة لا تتغير.

إن الدين الإسلامي الرائع أنزل لكل الناس ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً﴾ (النساء/)، كما أنه أنزل لكل الأزمنة والعصور ، ولذا ، فإن علماء الدين وأئمة المساجد وخطباءها مطالبون بالإقبال على متغيرات الحياة وعلى مشكلاتها، يدققون فيها بوعي، ويفحصون عواملها بدقة ، بل ويضعونها تحت ميكروسكوب العلم الشرعي الأصولي، ليروا موقف الإسلام منها ، وليبينوا للناس، وخاصة الشباب منهم ، مواضع الحلال والحرام فيها، وهم حينما يفعلون ذلك ينبغي أن تكون الحكمة التي تقول «حيث لا أوجد أنا يوجد عدوي » نصب أعينهم، وأمام ناظريهم.

إن معنى ذلك أنه إذا لم ينزلوا هم إلى ميدان الحياة الواقعية، وإذا لم ينتبهوا إلى ما يجري فيها من تغيرات، وإلى ما يقع فيها من أحداث ومن تغير، وإذا لم يتدخلوا - بإيجابية - ليقودوا الشباب إلى السبل الصحيحة، وإذا لم يجاهدوا في فهم الشباب، وفهم مشكلاتهم.. إذا لم يفعلوا كل ذلك فإن هناك الكثيرين من شياطين الإنس الذين سيحتلون مواقع القيادة في كثير من المؤسسات الاجتماعية الحساسة، وبعض هؤلاء الشياطين من خارج مجتمعاتنا، وبعضهم الآخر من داخلها ، حيث يتسمَّون بأسمائنا ، ويلبسون ملابسنا، ويأكلون طعامنا، ولكنهم - في حقيقة الأمر - أخطر على أبنائنا ، وعلى مستقبل أمتنا من أعدائنا الذين نعرفهم جهاراً نهاراً.

خامسًا : التربية وقيم المجتمع:

إذا كان لكل ثقافة ركائز خاصة تتميز بها على غيرها من الثقافات ، فإن من أهم ركائز الثقافة الإسلامية التي يعتد بها المجتمع العربي ركيزة القيم، أو منظومة القيم التي يعتز بها كل مسلم غيور على دينه وعلى أمته.

وتلك المنظومة من القيم وصلت إلينا من أجيال السلف الصالح الذين ساروا على هدى النور الذي انتقل إليهم عبر ﴿ خير أمة أخرجت للناس﴾، منذ

غرس فيهم معلم البشرية الأسمى ، محمد بن عبدالله ﷺ هذه القيم.

لقد غرسها فيهم قولاً حكيمًا ، وفعلاً ممارسًا في حياته التي كانت كل لحظة فيها دروسًا تربوية عملية انتقلت منه ﷺ إلى أفراد جيل الصحابة العظام، بخاصية « انتقال أثر التعليم أو التدريب » التي يحدثنا بها علماء النفس، فصارت مواقفهﷺ مصابيح تربوية مشعة أضاءت الطريق لأجيال من الصحابة الكرام، رضى الله عنهم أجمعين ، ومن التابعين وتابعيهم ، أولئك الذين غيروا الدنيا من حولهم ، بعد أن تغيروا هم من الداخل ، بفعل تربية المعلم الأسمى ، ﷺ ، تلك التربية التي نزل منهجها من فوق سبع سماوات ، في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾.. وصدق الله العظيم.

والقيم التي يفترض أن تسود الثقافة في المجتمع العربي المسلم، والتي ينبغي أن تقوم التربية بغرسها وتعميقها في نفوس وشخصيات الأطفال والشباب كثيرة جداً ، ويمكن فقط أن نشير إلى بعضها من بعيد، فليس القصد هو الحصر والعد، وإنما المقصود هو التذكير بها فقط ، وبما تمثله، وبأهمية دور التربية - بمؤسساتها كلها - في رعايتها ، بعد غرسها ، وفي العمل على التمكين منها .

إن المؤسسات التربوية في مجتمعنا العربي المسلم ينبغي أن تولى عنايتها الكبرى لقيم مثل « الأخوة في الله » ، بين أبناء المجتمع الواحد.. المجتمع الكبير، ونعني به مجتمع المسلمين. وأن يترجم ذلك في سلوكيات الأطفال والشباب الصغار.. عمليًا ، في جميع مراحل التعليم، كما ينبغي أن يتضح في الكتابات الصحفية، وفي مقالات وقصص الكتاب والمفكرين ، علاوة على برامج القنوات التليفزيونية وأفلامها ومسلسلاتها.

هذا وإن أقرب الناس الذين ينبغي أن تتضح هذه الأخوة في معاملاتهم هم الجيران، وذلك من واقع غرس الرسول ﷺ حيث كان دائم التذكير لأصحابه بما للجار عليهم من حقوق، قولاً وعملاً ، حيث نقلت عنه «السيدة عائشة» رضى الله عنها ، قوله «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وقيم « الصدق » ، و« الاخلاص » ، و « الأمانة » ، و « الوفاء بالعهد»، و « الحرص على المواعيد » و « إتقان العمل » ، و « احترام كبار السن » ، وتوقيرهم، وكذا « حب الصغار » والعطف عليهم، و « تفضيل الصالح العام» على المنفعة الشخصية ، و « طلب العلم » ، و « الحرص على الوقت » ، و « احترام الذات » وأيضًا « احترام الآخرين ».. كل أولئك.. وغيرها كثير كثير ينبغي أن تتخذ منها التربية محاور أساسية لدروسها وبرامجها، في مجال الأسرة وتنشئتها لأطفالها، وفي المدرسة وعنايتها ورعايتها لطلابها، ووسائل الإعلام المختلفة في توجهاتها لمشاهديها وقرائها ومستمعيها، بالإضافة لرواد المساجد والذين ينبغي أن يركز لهم هذا الجانب القيمي في خطب ومواعظ الأئمة الوعاظ.

وللعلم فإننا لا نقصد هنا مجرد الحديث عن هذه القيم ، وذكرها وعدها، وإنما المطلوب هو نماذج حية طيبة تضرب لهم، وأمثلة تذكرهم، أمثلة من الماضي التليد تبين لهم كيف كان جيل الصحابة العظام يسلك ويتصرف، رضوان الله عليهم أجمعين ، بناء على القيم التي تعلموها ودربوا عليها علي يدي المعلم الأسمى ﷺ ، ومواقف عملية أثرت في حياة الأمة الإسلامية لما استمسك بها أصحابها.

ورجال التربية جميعًا .. من معلمين.. وآباء وأمهات.. وإعلاميين.. وكتاب ومفكرين.. وأئمة ووعاظ عليهم أن يعودوا لتراث الأمة الإسلامية الرائع والمثمر في هذا المجال،وسيرة الرسول ، ﷺ ، ومن بعده الخلفاء الراشدون، ومن سار على هديهم، فيها الكفاية ويزيد.

أذكر أني كتبت في بحث لي [١٠] عبارات لعلها تكون مفيدة في مجالنا هذا الذي عنه نتحدث « إننا نسمع عن الحكماء .. عبر التاريخ.. في شعوب العالم المختلفة ، باعتبارهم عملة نادرة ، لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلاً ، وقد تمر أجيال بأكملها لا يولد فيها واحد من هؤلاء الحكماء، ولكن أن تكون هناك

---

(١٠) محمد عبدالعليم مرسي : التربية والتنمية .. في الإسلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ص ٢١-٢٣.

مدرسة، أو جامعة تخرج هؤلاء الحكماء .. فهذا هو الجديد .. هو المعجز ، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال مدرسة الإسلام العظمى، ولذا فلم يكن غريبًا أن يحفل الجيل الأول .. والرعيل الممتاز ، من صحابة الرسول ﷺ ، بالحكماء الذين تخرجوا من جامعة الإسلام الرائعة والمتميزة ، في كل مجال ، في العلم وبحوره الواسعة والعميقة، وعلي بن أبي طالب، رضى الله عنه ، نموذج لا يدانى لهؤلاء الحكماء الذين تعلموا العلم وأشربوه على يد خير الأنام ﷺ ومن وراء « علي » رضي الله عنه ، طابور طويل من العلماء والحكماء، رواة الأحاديث النبوية الشريفة ، وحفظة القرآن الكريم، والمفسرين والمحققين المدققين الذين لم يجد الزمان بمثلهم.

وفي مجال الحكمة.. والحصافة.. وبعد النظر، والثبات في الأمر، حين تهب العواصف الهوجاء ، وتدلهم الخطوب ، وتحتاج الأمة لحكيم عاقل يقبض بيد قوية ثابتة على دفة المركب، ويسيِّرها وسط العواصف العاتية، ووسط بحار الظلمات الرهيبة والمرعبة، هل هناك من جامعة استطاعت أن تخرج حكيما مثل « أبي بكر » رضي الله عنه، ذلك الصحابي الرائع، صاحب الفكر الثاقب، والنظر البعيد.. ذلك الذي أنقذ الأمة الإسلامية الوليدة من أخطر ما واجهها، بعد وفاة صاحب الرسالة ، وغيابه تحت الثرى ﷺ.. ؟؟

وهل هناك جامعة ، في أي مكان في الدنيا، يمكنها أن تأمل من جيل بأكمله، من خريجيها، مهما كان عددهم، ومهما كانت نوعياتهم، أن يقودوا أمة بأكملها، وأن يسوسوا أمورها في سياسة داخلية وخارجية، في سلم وفي حرب، في رعاية مصالحها الاقتصادية، وفي السهر على مواجهة وعلاج مشكلاتها الاجتماعية، في نشر عدل ندر أن جاد الزمان بمثله، وفي حسم مع الأمراء والقادة والولاة، قبل الأفراد العاديين ، في إنشاء دواوين ، وفي رعاية أرامل وأيتام، في بكاء بالليل.. خشية الرحمن، وفي تعب وكد بالنهار، حرصا على مصالح المسلمين .. كما كان يفعل « عمر بن الخطاب » ، الفاروق ، رضى الله عنه.. ؟؟

والأمثلة التي يمكن أن يتوقف عندها الإنسان ، يحاول أن يحصي

عظماء الرجال، من الصحابة الأطهار، الذين تربوا على يد المصطفى ﷺ ، قد لا يمكن حصرهم وعدهم وتصنيفهم، كل في مجاله الذي أبدع فيه، ولكن يكفي أنهم غيروا وجه الحياة .. في جزيرة العرب، ثم انتقلوا بهذا التغيير إلى الامبراطوريات التي كانت معروفة آنذاك.. فغيروها هي الأخرى ، وكانت كتائبهم مكونة من المجاهدين المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله، ليشتروا بها الحياة الآخرة، وكان على رأس هذه الكتائب والجيوش قادة عظماء، تخرجوا من جامعة الإسلام العظيمة، وتربوا على يد أعظم قائد ، فكان الرجل منهم ، في حد ذاته، جيشًا .. في قلبه .. وشجاعته.. وبأسه.. وقوته.. وبراعته وحيلته، والذين يريدون معرفة هذه النوعية من الخريجين العسكريين لهذه الجامعة الأم، فليقرأوا عبقرية « خالد بن الوليد » ، وبراعة « سعد بن أبي وقاص »، وشجاعة « الزبير بن العوام » ، وحماس « أسامة بن زيد » .. القائد .. الشاب، بل القائد الذي كان في مستهل الشباب.

ولقد اقتبسنا هذه النماذج الإسلامية الرائعة لتكون أمام التربويين في كل مؤسساتنا التي تهتم بتخريج الأجيال من أبناء الأمة ، وليقدموا للصغار في مجتمعاتنا ، وكذا للشباب مجموعات القيم الإسلامية الرائعة التي تربى عليها هؤلاء النفر العظام ، من صحابة رسول الله ﷺ ، لتكون نبراسًا لأعمالهم يقدمونها للأطفال والشباب نماذج حية غيرت وجه التاريخ ، وأقامت حضارة أذهلت الشرق والغرب على السواء، واعترف بها علماؤهما ، والفضل ما شهدت به الأعداء.

سادسًا : ضرورة شمول التربية لكل طوائف المجتمع:

عندما نقول إن الثقافة تنتشر بين جميع طوائف المجتمع وجماعاته فإن ذلك يمثل عبئًا كبيراً جداً ومسؤولية ضخمة على جميع المؤسسات التربوية العاملة فيه ، بحيث تصل خدماتها إلى أفراد كل هذه الطوائف ، دون استثناء من الصغير إلى الكبير ، ومن الغني إلى الفقير ، ومن العامل والصانع، إلى الفلاح والمزارع، ومن المثقف القارئ إلى الإنسان العادي الذي ـ ربما ـ لا يقرأ ولا يكتب.

إن كل المؤسسات التربوية التي سبقت الإشارة إليها، بالإضافة إلى الجامعات والمكتبات العامة ، والأندية الثقافية والأدبية والرياضية، مطالبة بأن تنزل إلى المواطنين في تجمعاتهم حيث كانوا، وأن تفتح أبوابها لهم، وتدعوهم إلى منتدياتها ولقاءاتها، حتى تصير الثقافة العامة شائعة بين الجميع، ومتاحة لهم، وحتى تكون هناك خيوط اتصال متينة تربط بين أبناء المجتمع، توحد بين فكرهم، وتؤلف بين مشاعرهم، وتشدهم إلى اهتمامات خاصة بقضايا مجتمعاتهم.

إن الجامعات الامريكية في الغرب ، على سبيل المثال، لم تعزل نفسها خلف أسوارها، ولم يعش أساتذتها في أبراج عاجية يجرون تجاربهم، ويؤلفون كتبهم وبحوثهم، وإنما هم نزلوا إلى مجتمعاتهم يبحثون في مشكلاتها، ويقدمون لها ما توصلوا إليه من حلول واقتراحات، بحيث أن ما عقد من لقاءات ومؤتمرات ـ في عام واحد ـ تناولت أموراً تخص أفراد المجتمع الأمريكي قد بلغت الآلاف .. دون أدنى مبالغة.[(١١)]

سابعًا : العلاقة بين الثقافة والتربية :

وأخيراً .. نصل إلى جماع ذلك كله في العلاقة بين الثقافة والتربية ـ إن التربية هي ـ بلا شك ـ وسيلة اكتساب الثقافة ، وهي ـ بلا شك كذلك ـ التي تعين أجيال المجتمع على تمثلها وهضمها، ثم إنها هي ـ أي التربية ـ التي تعد أفراد هذه الأجيال للحفاظ عليها، بل وللدفاع عنها، ربما بحياتهم.. إذا اقتضى الأمر ، ولا يمكن لإنسان أن يضحي بحياته، أو يطلب منه ـ في لحظة معينة ـ أن يفعل ذلك إلا إذا كان قد ربى تربية حقيقية تجعله يقبل على ذلك ، أي على الموت وهو مقتنع تمامًا قناعة لا يداخلها شك بما يفعل.

لقدأصبحت الثقافة ، بعد مفهومنا لها، وهي مرادفة لوجود الإنسان ذاته فلا إنسان بلا ثقافة، فإذا هددت الثقافة فمعنى ذلك تهديد حياة الإنسان

(١١) محمد عبدالعليم مرسي: التعليم العالي ومسؤولياته في تنمية دول الخليج العربية، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ،

ذاتها، والتربية بمعناها الشامل هي التي تعد الإنسان.. روحيًا.. ونفسيًا.. ومعنويًا .. وجسديًا .. للدفاع عن ذاته، عندما تهدد حياته، وهي كذلك التي تعد أفراد المجتمع للدفاع عن دينهم وعقيدتهم ومجتمعهم والموت في سبيل الله، وهذا هو الفرق بين مجتمع المسلمين المؤمنين ومجتمع الكفار الذين قال الحق تبارك وتعالى فيهم ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾.. (البقرة/٩٦) ، ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى ، قد وصف ما يحرص عليه هؤلاء الكفار بانه « حياة » .. مجرد حياة.. أية حياة، فهي كلمة نكرة تحط من قيمة ما يحرصون عليه، وتبين أنه لا قيمة ذات معنى لهذه الحياة ، فطالما يحيون فهذا هو المهم، حت لو كانت حياة خالية من أي قيمة يحرص عليها الإنسان، ومن أي معنى، وبلا هدف يسعى الإنسان لتحقيقه، أو غاية سامية يرجو الوصول إليها، وتلك على وجه اليقين هي الحياة المادية، فهم ، وكما وصفهم الحق تبارك وتعالى ﴿ والذين كفروا يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ . (محمد /١٢).

وذلك - تمامًا - عكس حياة المسلمين المؤمنين التي اشتراها منهم الحق، جل وعلا ، فهنا نجد الهدف واضحا، كما نجد المثوبة والأجر العظيم﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (التوبة/١٧)، ولذا جاءت تربية المعلم الأسمى، والمربي الأمثل، ﷺ ، لتبين لنا كيف غرس في نفوس صحابته الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين، حب الاستشهاد في سبيل الله ، لدرجة أن الرجل منهم كان يستطيل حياته فيما لو بقى على ظهر الأرض حتى ينتهي من أكل تمرات كانت في يده، وما ذلك إلا لأنه وثق - تمامًا - أنه سوف ينال الجزاء الأوفى.. فوراً .. وأن وعد الله ، جل وعلا، حق، وأنه سوف يدخل الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض إذا ما قاتل المشركين فنال الشهادة .

ثامنًا : التكامل في التربية لمواجهة التكامل في الثقافة :

وإذا كانت الثقافة ، كما سبق الشرح في فصل سابق من فصول هذا الكتاب، تتميز بالتكامل وبالتغير والتطور والانتقاء والشمول، فإن التربية ينبغي ألا تتخلف عن تحقيق كل هذه الصفات في برامجها ومناهجها وأوجه

النشاط فيها، إذ أنه لا يعقل أن تكون أوجه الحياة في المجتمع نشطة فوارة ، تموج بالحركة والحيوية، وبقبول الجديد والتعامل معه، بينما برامج التربية ومناهجها ومناشطها قديمة بالية. أكل عليها الدهر وشرب ، وفاتها قطار الحركة والتغير والتطور والنمو.

إن هذا الوضع إن سمح له بالاستمرار فمعناه المبدئي والفوري أن تلك النوعية من التربية إنما تسمح لنفسها بأن تخرج لمجتمعها شبابا لا ينتمون إليه، ولا إلى عصره الذي يعيش فيه. شباب درسوا وتربوا على أمور لا صلة لها بواقع الثقافة في مجتمعهم، وبالتالي فإن هؤلاء الشباب الخريجين من مؤسسات تربوية هذا شأنها يصبحون أمام موقفين : الأول .. إما أن يتعاملوا مع أفراد المجتمع من حولهم على أساس ما تعلموه في المدارس وغيرها، وما تربوا عليه، وهو - في معظمه - غريب على قيم مجتمعهم وعاداته وتقاليده، باختصار.. ثقافته، والثاني .. أن يتعاملوا مع مجتمعهم على أساس الثقافة الفعلية السائدة فيه هو، ومن ثم فإنهم مضطرون بأن يلقوا خلف ظهورهم بكل ما تعلموه، وكل ما دربوا عليه، وهذا في حد ذاته موقف صراعي لا يسهل فيه اتخاذ قرار، خاصة وأن ما يتعلمه الشباب وما يربون عليه يدخل جزء كبير منه في بناء شخصياتهم، وبالتالي لا يسهل سحبه أو انتزاعه منهم ، بالإضافة إلى أن محاولاتهم نسيان الذي تعلموه أو التخلص منه فيه إهدار لعنصر الوقت المتمثل في السنوات الطوال التي عاشوها يطلبون العلم في مدارس لم تفهم معنى رسالتها، ومع برامج ومناهج ومناشط لم تعد للحياة في المجتمع ولا للعصر الذي توجد فيه، وفي كلتا الحالتين فإن الخسارة كبيرة ومؤكدة على كل الجبهات، ولا نتحدث هنا عن خسارة المجتمع من الأموال التي أهدرها على تعليم غير مناسب، وعلى تربية تصادم المجتمع ولا تخدم متطلباته، ولا تحقق أهدافه.

إنها خسارة على المجتع الذي لم يستفد من جهود المدرسة - على سبيل المثال - التي وثق فيها، والتي أنفق عليها ورصد لها الملايين من ميزانيته، وعلى المدرسة التي أضاعت أيامًا غالية من عمرها، بل سنوات طوالا من عمرها وعمر

مرتاديها، بينما هي كانت تحرث في البحر، والمنتسبون إليها يظنون أنهم « يحسنون صنعًا »،وعلى الطلاب الذين أرسلهم ذووهم ليتلقوا العلم، وليتلقوا التربية، فإذا بهم تخيب آمالهم، وتتخرج منهم طوائف وأجيال يشعر أفرادها بأنهم أضاعوا أعمارهم فيما لا فائدة فيه، ولا طائل من ورائه، بل ويشعرون أنهم في حاجة لأن تعاد تربيتهم، وأن يعاد تدريبهم من جديد (!!) حتى يستطيعوا التواؤم مع ما يجري حولهم في مجتمعاتهم من أمور، بل إنهم محتاجون للتواؤم مع الحياة ذاتها..

إن المؤسسات التربوية في مجتمعاتنا عليها واجب لا فكاك منه، ولا محيص عنه، وهو أن تعيد النظر في كل ما تقوم به، حتى ترى موقعها وموقعه من قضايا الثقافة في المجتمع، وعلى سبيل المثلا فقط لا الحصر :أين التربية من قضية التماسك الاجتماعي.. أي تماسك البناء الاجتماعي داخل مجتمعاتنا.. ؟؟ بمعنى هل هناك من المناهج والبرامج والمقررات والمناشط ما يخدم هذا البعد فعلا..؟؟ وهل هناك من المناهج والبرامج والمقررات وأوجه النشاط ما يعمل جاهداً على توضيح قيم المجتمع ومعاييره وترسيخها في نفوس وشخصيات أجيال المستقبل.. ؟؟ توضيحها شرحًا مكتوبًا ومقروءاً، وتوضيحها سلوكًا عمليًا منفذاً ومطبقًا..؟؟

وهل هناك من هذه المناهج والبرامج والمقررات والمناشط ما يساعد على وحدة الأمة (الإسلامية والعربية)، وما يؤكد ذات الفرد المسلم باعتباره عضواً له كيانه، وله قيمته وكرامته، لأنه إذا كانت اللبنة الأولى قوية متينة كان البناء كله متماسكًا قويًا، وذلك استنادا لتكريم الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان منذ يوم خلقه ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الإسراء/ ٧٠). فهل يحدث هذا فعلاً في مدارسنا ومعاهدنا التربوية بحيث تخرج هذا الإنسان المكرم الذي يعيش في مجتمع حر كريم، يرفع رأسه، ويعتز بكرامته، ويقول رأيه معتدا بذاته، واثقا من نفسه، آمنًا على حياته، وعلى رزقه، وعلى أولاده ومستقبلهم، إن كنا نفعل ذلك فهذا الإنسان هو اللبنة المنشودة حقًا، لبنة الثقافة الطيبة التي نسعى لأن

تكون هي السائدة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

كل هذه الأسئلة، وهناك غيرها كثير، وهي تحتاج منا نحن التربويين أن نقف عندها ، وأن نفحصها بعناية، وأن نعيد النظر فيها ، وفي إجاباتنا السابقة عليها، إن كنا قد تعاملنا معها من قبل، نظراً لما جرى ويجري في مجتمعاتنا وثقافتنا من تغير وتطور وتحول، ثم إنه علينا ـ من بعد ذلك ـ أن ننظر في مناهجنا وبرامجنا ومقرراتنا وأنشطتنا في مدارسنا ومعاهدنا والجامعات، وأن نرى موقعها من هذه الأسئلة ومن الإجابة عليها.

ثم إن علينا أن نفحص ـ بعناية وجد وبروح مسؤولة وأمينة ـ ما تقدمه وسائل الإعلام عندنا من برامج وأفلام وتمثيليات ومسلسلات ، بل وإعلانات تجارية كذلك (!!) لنرى موقع ذلك كله من تربية الإنسان، ومن إعداده لتحمل مسؤولياته، داخل ثقافة مجتمعه المسلم، وهل هذه البرامج والأفلام والتمثيليات والمسلسلات، وكذا الإعلانات، هل تساعد ذلك الإنسان المسلم على أن يُبنى داخليًا ويربى بحيث يكون لبنة قوية صالحة داخل البناء الثقافي في مجتمعه العربي المسلم، أم أنها تعمل على تغريبه وتهميش دوره، وذلك من خلال الإصرار على سهره حتى الساعات الأولى من الصباح .. بل حتى إلى اليوم التالي ، طوال أيام الأسبوع(!!!)، وهو يشاهد برامج وأفلاما ومسلسلات وتمثيليات وإعلانات تسلب لبه، وأحيانًا فكره، ومشاعره، ومن ثم إرادته، حتى إذا ذهب إلى العمل كان حطام إنسان وبقايا بشر، لا ينتج لنفسه ، ولا لمجتمعه، ولا لأمته..؟؟

كل ما سبق ، وغيره كثير ، مسؤوليات أهل التربية، في كل موقع، وفي كل مجال، ولا حيلة لنا ، ولا مفر من تحمل هذه المسؤوليات ومواجهتها، والتعامل معها.. في مدرسة، وفي بيت.. في مسجد، وفي صحيفة.. في مجلة، وفي تليفزيون وجهاز راديو ، في ناد ثقافي أو أدبي أو رياضي، في مكتبة عامة وفي غيرها ولو فعلنا ذلك بأمانة وعلمية وواقعية.. ومسؤولية، لو فعلناه لأعدنا للبشرية سيرة الأبطال العظام من الغر الميامين أصحاب رسول الله ﷺ ، أولئك الذين صنعوا ، بفضل تربيته لهم، هذه الثقافة الإسلامية التي نكثر

الحديث عنها ، والتي نعتز بها.

وللعلم .. وفي الختام فإن هناك كلمة أخيرة واجبة ينبغي أن نتوجه بها لأنفسنا، وهي تتعلق بثقافتنا الإسلامية وحضارتنا التي نجيد التغني بها وبأمجادها في شتى المجالات، إننا نجيد الكلام، ونتفنن في التمجيد، ولكن الحديث وحده لا يعيد مجداً ، والتمجيد لا يبعث حضارة ، والاتكاء على وسادة التراث لا يوقظ أمة، وإنما العمل، والعمل الجاد ، والجهد الصادق، والعزم والإصرار ، والسهر والعرق والدموع، والصدق مع الله ، ثم مع النفس ، ومع الناس.. كل هذه الأمور مطلوبة إذا كنا نريد حقًا أن ننشئ أجيالاً - بالتربية الإسلامية - يعتمد عليها في المستقبل، بحيث تكون هذه الأجيال هي الركيزة الأساسية لعودة الحضارة الإسلامية ، ولبعث الثقافة الإسلامية ، ولا شيئ غير هذا.